روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

منتدى مكتبة الإسكندرية
www.library4arab.com

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٦٢ ـ أكتوبر ١٩٧٠ ـ شعبان ١٣٩٠

No. 262 — October 1970

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم • ونصف دولارات أو ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج تحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج•ع•م » ـ والاسعار الموضحة تشمل بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة

تليفون : ٢٠٦٤٠ « عشرة خطوط »

www.libraryalarab.com

الدار الكبيرة

بقلم

محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

دار الهلال

منتديات مكتبة العرب
www.library4arab.com

الغلاف بريشـــــة
الفنان هبـــة عنايت

منتديات مكتبة العرب
www.library.arab.com

مقدمة المترجم

فى عام ١٩٥٣ قامت مجلة الاخبار الادبية Les Nouvelles Littéraires باستفتاء حول هذا السؤال : « هل هناك مدرسة أدبية شمال أفريقية ؟ » وواضح من السؤال أن واضعه يتصور أن الادب الذى ينتجه كتاب شمال افريقية باللغة الفرنسية انما هو جزء من الادب الفرنسى ، ولكنه يتميز بطابع خاص يجعله خليقا بأن يعد مدرسة قائمة بنفسها من مدارس الادب الفرنسى .

وكانت الأجوبة التى أجاب بها كتاب شمال افريقية عن هذا السؤال تشير جميعها الى أن تسمية الادب بأنه مدرسة جديدة من مدارس الادب الفرنسى هو اطلاق اسم خطأ على واقع لا شك فيه ، هو هذا الازدهار الكبير فى أدب المغرب العربى عامة ، وفى أدب الجزائر خاصة . ومعنى ذلك أن هذا الادب المغربى ليس من الادب الفرنسى فى شىء ، وانما هو أدب عربى كان مضطرا الى استعارة اللسان الفرنسى ، لظروف يعلمها الفرنسيون قبل غيرهم . فالى هذا أشار محمد ديب ، كاتب الروايات الثلاث التى نقدم « ترجمتها » العربية الان (١) حين رد على ذلك السؤال بقوله : « بل قولوا ان أدبا قوميا يظهر الان فى المغرب عامة وفى الجزائر خاصة . غير أن الامر الذى له دلالة بليغة هو أن هذا الادب يكتب باللغة الفرنسية فى بلاد ذات تراث ثقافى اسلامى لا تزال تحاول ، ولو فى كثير من العناء ، أن تقدم انتاجا أدبيا باللغة العربية » .

أما هذه الدلالة البليغة التى يشير اليها محمد ديب فهى أن هؤلاء الكتاب العرب قد عرفوا فرنسا بأساليب التجهيل التى اتبعتها فى الجزائر وهى أن تنزع منهم أداة التعبير باللغة الأم ، وان تضع بين أيديهم

(١) هذه الرواية الاولى من الثلاثية وفى الشهرين القادمين تصدر رواية « الحريق » ورواية « النول » فى سلسلة روايات الهلال وبذلك تتم الثلاثية .

www.al-maktabeh.com

اداة أخرى هى اللغة الفرنسية ، لا حيلة لهم فى الاعراض عنها اذا أرادوا أن تدور السنتهم بكلام أو أن تجرى أقلامهم بكتابة .

ما هنا مجال الحديث عن الاساليب التى اتبعتها فرنسا فى الجزائر من أجل أن تنسى شعب الجزائر لغته ، وهيهات ! فلهذا مقام آخر .

ولكننا نحرص فى هذه العجالة على أن نذكر أن هؤلاء الكتاب الذين استعاروا اللسان الفرنسى للافصاح عن خلجات القلب العربى ، وأفكار الذهن العربى ، وصبوات الارادة العربية ، يشعرون شعورا قويا بأنهم من ذلك فى مأساة .. فى مأساة ذات وجوه عدة ليس اخطرها شأنا أن أحدهم يتمنى أن ينطق باللغة التى تتفق وسمرته ، وأن يكون عربى اللسان كما هو عربى الوجه واليد والقلب ، ولا لأنهم يخجلون من الكتابة بلغة هى لغة المستعمر العدو ، بل أخطرها شأنا احساسهم بأن هناك ارتباطا بين مشاعرهم وأفكارهم وأحلامهم العربية وبين اللغة العربية التى كانت تستطيع وحدها أن تعكس هذه المشاعر والافكار والاحلام عكسا صادقا يتوافر فيه كل ما ينبغى توافره فى التعبير الادبى من انسجام خفى بين المعنى واللفظ ، بين تموجات العاطفة وموسيقى العبارة ، بين لطائف الفكر وتثنيات الاسلوب ، بين ايقاع النفس ونبرات اللسان ، وذلك ما عجزوا عنه أو أعجزوا . فكان بهم ذلك الضيق الذى يأخذ بخناق من يحس أن ما يجرى به لسانه دون ما تضطرب به نفسه غنى وقوة وعمق ، أو ذلك الذى يهم بأن يقول شيئا يزدحم به فكره ولكن لسانه معقود ..

ومن أجل ذلك أيضا كان بهم ذلك الحنين الاسيان الذى يذكرنا بما قد تشعر به نفس فارقت جسمها فهى تهوم فى عذاب اللانهاية تبحث عنه نائحة نادبة ولا تجده ، أو بما يمكن أن يشعر به طفل فصل عن أمه فهو ما ينفك سائلا عنها وجوه أمهات أخريات تريد احداهن أن تحتضنه ولكنه لا يرى فيها أمه ، فهو يعرض عنها ، أو يستسلم لها على مضض وفى حسرة .

وليس الرابط بين الأم واللغة الام من باب الجموح فى الخيال . فاللغة التى خاطبت بها الأم ابنها أول عهده بالكلام وأول عهده بتفتح الوعى وانبجاس المشاعر واغتناء العواطف تظل هى اللغة التى تتصل بالقلب والفكر والخيال جميعا ، اتصالا لا انفصام له . ان عواطف

www.library-arab.com

الطفولة موصولة الاسباب بالشخصية كلها كما يعلمنا علم النفس .

فلا عجب ، والامر كذلك ، أن يكون أبرز وجوه المأساة التي يحسها أدباء الجزائر أنهم محمولون على الكتابة بلغة ليست هي اللغة التي خلقت لتعبر عنهم .

وليس يعزيهم عن هذا أن يكونوا قابضين على ناصية هذه اللغة الفرنسية ، وأنها بين أيديهم طيعة طواعية تشبه أن تكون طواعية المذلة ، وأنهم بتصريفها فيما يريدون أن يصرفوها فيه من وجوه التعبير شعرا ونثرا وقصة وفلسفة يخجلون كبار أدباء فرنسا . فان ذلك كله لا يغنيهم عن الانفاس التي كانوا يتمنون أن تخرج من صدورهم فتحرك لهوات انما خلقت لتتحرك بها ، لا ولا يغنيهم عن نفض مشاعرهم بلغة هي التي هدهدتهم بها أمهاتهم في المهد فارتبطت بأعمق ما في نفوسهم .

ومن أجل ذلك نرى الشاعر مالك حداد يصيح ذات يوم صيحته الموجعة في احدى قصائده قائلا : أنا أرطن ولا أتكلم ، ان في لغتي لكنة ، انني معقود اللسان .. ويسمعه نقاد الادب في فرنسا الذين قرأوا شعره فأحلوه بلغته الفرنسية الرائقة في قمة ، فيحملقون ويقولون : ما هذا التواضع ، ان لك لفرنسية رائعة . ولكن مالك حداد يظل يصيح صيحته الموجعة : أنا أرطن ولا أتكلم ، ان في لغتي لكنة ، انني معقود اللسان .. أنا لا أغني ، أنا لا أغني .. فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا . « نعم ، يا أراجون ، هذه هي مأساة اللغة .. لو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا » . ذلك أن أراجون كان قد كتب يقول : « انني أفهم مأساتهم ، مأساة أن يروا أدبهم « مترجما » ، قد فقد أصداءه العميقة أو كاد » . « نعم ، يا أراجون ، هذه هي مأساة اللغة » . « لقد شاء الاستعمار أن يكون في لساني آفة ، أن أكون معقود اللسان . » . « لا تلمني يا شاعر ، يا صديقي اذا لم يطربك صداحي » . لقد كان مالك حداد ينادي أمه في طفولته بقوله : يا ما ، وهو يسميها الان في شعره : «Ma Mère» أماه ! ياما ! هل يمكن ان يكون اسمك «Ma Mère»

فكذلك يحس أدباء الجزائر الذين أراد الاستعمار أن يكون في لسانهم عقدة ، كذلك يحسون بالمأساة احساسا عميقا أليما .. انهم

www.arabic-arab.com

من بعدهم عن العربية فى غربة موحشة .

ولقد أنصف ذلك الناقد الفرنسى الذى قال فى مقدمة كتبها لاحدى روايات (كاتب ياسين) ما فحواه : يجب أن نعد هذا الكتاب رواية عربية مترجمة الى اللغة الفرنسية ، لا لأن أبطالها عرب ، ولا لأن أحداثها تجرى فى أرض عربيـــة ، ولا لأن مدارها على الآلام التى يتحملها العرب فى الجزائر وعلى الآمال التى تجيش فى صدورهم ، بل أولا وقبل كل شىء لان العقل الذى أنجبها عقل عربى ، له أسلوبه الخاص فى كل شىء ، فى النظر الى الامور ، فى الاحساس بالمشكلات ، فى معاناة الحياة ، بل حتى فى تصور الزمان والمكان .

والفاجعة ، بعد ، عند من يترجم الى العربية آثار كتاب الجزائر المكتوبة بالفرنسية انه يحس بأنه لا يرد الى الاثر شيئا مما كان يمكن أن يكون له من رواء لو كتب بالعربية ، وانما هو يفقده مزيدا من ذلك الرواء ، فالاثر قد ضاع منـــه شىء مرتين : مرة حين كتب بالفرنسية ، ومرة حين ترجم عن الفرنسية .

واذا كان لا بد من كلمة عن روايات محمد ديب الثلاث التى نقدم « ترجمتها » الى العربية الآن ، (وهى فى الحق رواية واحدة من ثلاثة أجزاء) فخير ما نفعله هو أن نستمع الى محمد ديب نفسه يتحدث فى كلمة بعث بها الينا لتكون بمثابة تقديم للطبعة العربية لرواياته :

« كان لا بد للسنين المائة والثلاثين التى قضتها فرنسا فى «تمدين» جزائرنا من أن تؤتى ثمراتها . والحق أنها قد آتت هذه الثمرات ، فيالها من ثمرات ! ستعرفون هذه الثمرات : ان وصفها هو موضوع هذه الروايات الثلاث . غير أننى أحس ــ وا أسفاه ــ أن اللوحة التى رسمتها لاتبلغ من السعة كل ما كان ينبغى أن تبلغه . كان هناك أشياء كثيرة مفرطة فى الكثرة يجب تصويرها . وكان تصويرها يحتاج الى موهبة . وقد اضطررت أيضا الى حذف عدد من العناصر حرصا منى على أن يصدقنى القارىء ، ذلك أننى وجدتنى أمام وقائع كثيرة لا يصدق العقل أن تقع ... »

لقد قالها محمد ديب بلسانه : أن رواياته هذه انما هى لوحة . ان محمد ديب لا يلفق قصة يتسلى بقراءتها الرافلون . انه يغمس ريشته ، ريشة الرسام الصادق ، فى الدم والعرق والعذاب والجنون

والحكمة والتمرد والمرض والتناقض والثورة ، فيخرج منها ألوانا يصبغ بها لوحته . غير أنه لا يجعجع ولا يصرخ ولا يحاول أن يعلم .

انه لا يهيب بأحد اهابة صريحة ان يثور . ولكن ما من أحد ، مهما يتحصن بالبلادة ، يملك أن لا يعايشه مشاعره وأن لا يحس فى أعماق نفسه بضرام ثورته . والى هذا أشار الناقد الفرنسى موريس نادو حين قال : « ان كاتب « الدار الكبيرة » يهز النفس هزا قويا بايجازه وتناوله الامور تناولا مباشرا نافذا . انه يؤثر فى القلب بأبسط وسيلة ، وهى ذكر الحقيقة عارية كل العرى ، بغير صراخ ولا دموع » (مركور دو فرانس) . والى مثل هذا أيضا ألمع الناقد الادبى لجريدة « الفيجارو الادبية » حين قال : « ان كتاب « الحريق » يأتى مصدقا لما عرف فى محمد ديب من مزايا نادرة ، هى مزايا كاتب يؤثر التعبير عن الحقيقة سافرة كل السفور على الصراخ والتوجع والتفجع ! » .

وذلك هو بعينه الشعور الذى خالجنا حين شهدنا منذ ثلاث سنين ونيف ، بطشقند عاصمة جمهورية أزبكستان السوفياتية ، وكنا عددا من أساتذة جامعة دمشق ، مسرحية مأخوذة عن رواية محمد ديب « الدار الكبيرة » ، لقد قلنا يومئذ : ان هذا الاثر الفنى لم يهزنا هزا قويا لمجرد أن الموضوع الذى يدور عليه يمس فى قلوبنا أوتارا خاصة بحكم أننا عرب نتجاوب تجاوبا خاصا مع آلام عرب الجزائر ، بل لأن فيه من الصدق ما يجعله خليقا بأن ينفذ الى كل قلب ، فلو شهده مستعمرون فرنسيون لما ملكوا الا أن يتأثروا اذا كانت لهم قلوب .

واذا كان محمد ديب رساما بارعا فهو أيضا شاعر فذ . وفى رواياته تتعانق ألوان المصور وأنغام الشاعر . هو رسام فى شعره ، شاعر فى لوحته . ولقد صدق روبرت كمف حين قال : « ان محمد ديب شاعر خلاق » . ان نفسه وتر مشدود يستجيب لكل اهتزازة ترتعش حوله . ما أجمل وصفه للطبيعة فى اطار الانسان ، وما أجمل وصفه للانسان فى أطار الطبيعة ! « لا شىء أروح من تأثر محمد ديب ذلك التأثر العميق الأسم بتعاقب فصول الطبيعة ! » .

وقد يجدر أن نذكر أن « الدار الكبيرة » قد نشرت عام ١٩٥٢ أى قبل قيام ثورة الجزائر ، فاذا رأينا فيها تباشير الثورة التى هبت

www.liilas.com

بعد ذلك تأكل الأخضر واليابس، وتمرغ وجه الباغى بالتراب ، وتذيق المستعمر الذل ، فلا تقولن ان الشاعر كالعراف الصادق النبوءة ،

وانما ينبغى أن نتذكر أن هذه الثورة قد تخمرت ونضجت ، فلما انطلقت كان فيها من الاحكام ما لا يكون بغير ذلك . وان رواية « الحريق » قد كتبت قبل الثورة أيضا ، ولكننا نرى فيها أطياف الثورة تتحرك ، فرب ناقد يقرأ الصفحات التى تصف تمرد الفلاحين على الاوضاع القائمة بمناقشات واعية ، فينعت محمد ديب بأن أدبه أدب تعليمى يبشر ويعظ ويحاول أن ينشر أفكارا بعينها . ولكن الحقيقة هى ان محمد ديب لم يزد على أن وصف واقعا راهنا ، فهو لا يجرى ألسن الفلاحين بغير ما تجرى به ألسنتهم من تلقاء نفسها من كلام فيه ذلك الوعى كله . انه يصور الحالة الفكرية والنفسية للفلاحين قبيل الثورة تصويرا أمينا . وهل يمكن أن نتخيل أن تقوم هذه الثورة العربية الجبارة فى الجزائر وأن تصمد هذا الصمود كله ، وأن تكون محكمة التنظيم على هذا النحو الرائع ، لولا انها تستند الى وعى عميق ؟ ان الفلاحين الذين يحققون هذه الثورة لا ترفدهم عاطفة متأججة فحسب ، وانما هم يعتمدون على نضج وفهم . ان الفلاحين الذين يقومون بالثورة ، انكانوا أناسا بسطاء طيبين ، تهون عندهم أرواحهم فى سبيل حريتهم ، فان فى بساطتهم وعيا ، بل ان بساطتهم هذه هى الوعى فى أسمى مدارجه .

ولنستمع الى محمد ديب مرة أخرى فى كلمته التى بعث بها الينا لتكون بمثابة تقديم لهذه الطبعة العربية لرواياته الثلاث :

« ... آمل أن تقدروا جملة الوقائع المثيرة التى رسمتها ، وأن تستمتعوا بهذه اللوحة كما يستمتع بها شعب الجزائر الذى قرر ذات يوم أن يفجر مفرقعات ، من قبيل الحماسة . انها عادة فى بلادنا : أن نفجر مفرقعات فى المباهج ... »

« ولكن « السادة » سرعان ما رأوا ان هذه العادات عادات عامية جدا ، لم يرض عنها ذوقهم فغضبوا ، فأعلنوا فى كل مكان : « ممنوع تفجير المفرقعات » فاذا بالمفرقعات فى هذه اللحظة يزداد تفجرها ، فهى تدخل بين أرجل السادة ، أمام أنوفهم ، تحت مقاعدهم ... وكان ذلك لا يليق بما يجب للسادة من احترام ، وفيه انكار لما

www.liberalarab.com

اسدوه من جميل ...

« وضاق السادة ذرعا ! هـذا تطاول .. وغضب « السـادة » الآخرون فى العالم ، فقرروا أن يمدوا الى أصدقائهم يد المعونة ، ذلك أن هـذه الفوضى لا يمكن احتمالهـا ، ولا بد من تأديب مفجـرى المفرقعات . ولكن جميع مفجرى المفرقعات فى العالم تنادوا من جهتهم الى شد أزر رفاقهم ..

« ومنذ ذلك الحين ...

« منذ ذلك الحين لم تنقطع المفرقعات عن التفجر فى كل ركن من الأركان ، وحيث لا يخطر بالبال أن تتفجر . جن السادة ، وطاش صوابهم ، وما زالوا يرغبون ويزبدون ويهددون ، ويحاولون أن يبثوا فى النفوس الخوف ...

« سلاما سلاما مفجرى المفرقعات !

هكذا يحيى محمـد ديب ، من مقـامه بالرباط ، اخوته الذين يحملون سلاح النار ويحمل هو معهم سلاح القلم .

ولد محمد ديب بمدينة تلمسان فى اليوم الواحد والعشرين من شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠ . وفى تلمسان ثم فى عوجا ، نال قسطا من التعليم ، ثم عمل فى مهن شتى ، فكان عاملا فى مصنع للسجاد ، ثم محاسبا فى محل تجارى ، ثم معلما ، فصحفيا ، فكاتبا . وقد ترجمت آثاره الى لغات عدة ، وفاز بجائزة «Feneon» الادبيـة عام ١٩٥٣

١٩٦٠/١١/١ سامى الدروبى

منتديات مكتبة العرب
www.library-arab.com

- ١ -

ـ هات قليلا مما تأكل .

قال عمر ذلك ، وهو يقف أمام رشيد برى .

ولم يكن عمر وحيدا . فان شبكة من الأيدى قد امتدت تلح كل منها فى طلب نصيبها من الصدقة . فاقتطع رشيد لقمة صغيرة من الخبز ، فوضعها فى أقرب راحة اليه .

ـ وأنا ... وأنا ...

ارتفعت الأصوات متوسلة . فاحتج رشيد ، وحاولت الايدى كلها أن تنتزع من يده خبزه .

ـ أنا ... أنا ...

ـ أنا ما أعطيتنى ...

ـ حليم أخذ كل شىء .

ـ ... أنا ما أخذت شيئا .

فما كان من الصبى ، وقد انصب عليه التحرش من كل صوب ، الا أن أسرع يهرب ، فركض وراءه السرب كله يعوى وينبح . أما عمر فقد ترك الملاحقة ، لأنه قدر انها لن تجدى .

ومضى الى مكان آخر . كان هناك صبية آخرون يقضمون خبزهم . فطرف بينهم مراوغا خلال مدة طويلة ، ثم انقض على زحمتهم بوثبة واحدة ، فانتزع رغيف صبى قصير منهم ، وأسرع يختفى فى وسط المدرسة حيث ابتلعته زوبعة اللعب والصراخ . ولم يسع الصبى القصير الذى كان ضحية هذا الاغتصاب الا أن أخذ يزعق وهو فى مكانه لا يبارحه .

كان ثمة تلاميذ يبلغهم عمر فى كل يوم : يطالبهم بنصيبه ، فان لم يطيعوا أمره فورا ، كان جزاؤهم الضرب فى كثير من الاحيان . أما اذا أطاعوا فانهم يشطرون طعامهم شطرين ، ويقدمون له الشطرين كليهما ليختار احدهما على ما يحلو له .

www.libanan.com

وهب أحدهم اختفى خلال فترة برمتها من فترات الاستراحة بين الدروس فانه لا يعند كثيرا فى اختفائه ، بل يمضى يرقب عمر عند الخروج من المدرسة أو فى فترة أخرى من فترات الاستراحة بين الدروس ، حتى اذا لمحه من بعيد أخذ يبكى ، ثم نال عقابه ، وانتهى الى اعطاء عمر طعاما كاملا فى هذه المرة .

غير ان الماكرين من التلاميذ كانوا يلتهمون خبزهم أثناء الدرس فى الفصل نفسه . فيقول واحدهم ، وهو يقلب جيوبه :

ـ ما أتيت اليوم بشىء .

ـ لا شك أنك أعطيت خبزك لآخر ، اخفاء له .

ـ لا ... لا ... أحلف لك .

ـ لا تكذب .

ـ أحلف لك .

ـ لا تطلب منى اذن أن أدافع عنك بعد الآن .. هه ..

ـ أحلف لآتينك غدا بقطعة كبيرة .

يقول الصبى ذلك ، ويريه بحركة من يده حجم قطعة الخبز التى يعده بها . فيتناول عمر طربوش الصبى ، ويرميه على الارض ، ويأخذ يدوسه بقدميه ، بينما يأخذ المذنب يعول عويل كلب معذب .

كان عمر يحمى أولئك الذين يستبد بهم كبار التلاميذ . ولم يكن هذا النصيب الذى يتقاضاه الا أجر هذه الحماية . كانت سنوه العشر تضعه فى منزلة وسط بين الاقوياء من تلاميذ الحلقة العليا الذين كانت شواربهم تسود ، والضعفاء تلاميذ الحلقة الاعدادية . وكان الكبار يهاجمونه انتقاما لأنفسهم ، ولكنهم لا يجنون من هجومهم شيئا ، لأنه لم يكن يجىء الى المدرسة بخبز . وكان يخرج هو وخصومه من هذه المعارك وقد دميت أنوفهم وأسنانهم ، وازدادت ثيابهم القذرة تقتقا لا غير .

وكان عمر يحصل على الخبز فى « دار سبيطار » بطريقة أخرى . كانت يمينة ، وهى امرأة قصيرة حلوة القسمات ، تعود من السوق فى كل صباح بقفة ملأى . وكثيرا ما كانت ترجو عمر أن يقوم عنها ببعض الاعمال . يشترى لها الفحم ، ويملأ دلوها من ماء العين ، ويحمل عجينها الى الفرن .. فكانت يمينة تكافئه عند عودته بقطعة

www.liilas.com

من الخبز مع ثمرة من الفاكهة أو مع فلفلة مشوية .. حتى لقد كانت تعطيه من حين الى حين قطعة من اللحم أو سردينة مقلية . وكانت في بعض الاحيان تناديه بعد الغداء أو العشاء ، حتى اذا أزاح الصبى الستارة ــ وكانت كل أسرة تسدل ستارتها فى مواعيد الطعام ــ أمرته أن يدخل ، ثم جاءت بطبق قد احتفظت بشىء من طيب الطعام فيه ، وكسرت الرغيف المدور الابيض ، ووضعت ذلك كله أمامه .

ــ الآن كل ، يا صغيرى .

تقول له ذلك ، ثم تدعه وتمضى تعمل فى الغرفة . كانت يمينة لا تقدم له الا بقايا طعام . ولكنها بقايا نظيفة ، لا يستطيع أكثر الناس تشددا أن يجدوا مأخذا عليها . كانت الارملة لا تعامل الصبى كما يعامل الكلب . وكان هذا يسره كثيرا .. أن لا يذل . وكان عمر لا يعرف ماذا يفعل ازاء كل هذه الرعاية وهذا اللطف . وكان لا بد ليمينة من أن تستحثه فى كل مرة حتى يتشجع على تناول الطعام .

صبى صغير هزيل ، له عينان قاتمتان كأنهما من فحم ، وله وجه شاحب قلق ، كان واقفا وحده بعيدا عن التلاميذ . راقبه عمر : انه مستند الى عمود فى ساحة المدرسة ، وقد جعل يديه وراء ظهره .. انه لا يلعب .. دار عمر حول الساحة ، وظهر من وراء شجرة دلب ، وأسقط بين قدمى الصبى ما كان قد بقى له من قطعة من الخبز ، وتظاهر بأنه لم ينتبه الى سقوط قطعة الخبز منه ، واستمر يركض ، حتى اذا وصل الى مكان يبعد عن الطفل مسافة كافية ، توقف وأخذ يتجسس عليه . فرآه يحدق الى كسرة الخبز من بعيد ، ثم يتناولها خلسة ، ويلتهمها .

كان الصبى متجمعا على نفسه ، جذعه الخائص مقمط بقميص من قماش الكاكى الذى يلبس فى الصيف ، وساقاه الهزيلتان تخرجان من فتحتى سروال طويل مسرف فى الطول . ان فرحا ملائكيا قد أضاء قسماته ، والتفت بوجهه نحو العمود . لم يفهم عمر ما الذى حدث له : لقد غص حلقه ، فهرع الى فناء المدرسة الكبير واجهش يبكى .

www.libraryalarab.com
مكتبة العرب

ـ ٢ ـ

ـ اهذا هو الغداء ؟..

كانت « عينى » تقشر عكوبا بلديا قصيرا شائكا .

ـ نعم هذا هو الغداء !..

ـ فى أى ساعة نأكل ؟ .. هى الآن الحادية عشرة والنصف . لعن الله أبا العكوب وأمه ! ..

وهم عمر بأن يخرج .

ـ اذهب . الرجال لم يخلقوا للبيت .

كانت الأم تفكر فى سى صلاح ، مالك البنت ، الذى يكره أولاد المستأجرين أشد الكره . كان سى صلاح قد حظر على الاولاد أن يلعبوا فى فناء البيت ، فاذا فاجأهم فيها فرق شملهم وراح يقرع أهلهم . وكان هؤلاء لا يجرءون أن يردوا عليه ، فاذا رأوه تجمدوا فى مكانهم أذلة ، أو اعتصموا بغرفهم لا يبارحونها . كانوا يحترمون مالك البيت احتراما يبعثهم عليه خوف ليس له حدود . وكانت زوجة سى صلاح ، وهى امرأة عجوز شمطاء ، تصاولهم أثناء غيابه بصراخها الذى يشبه صراخ العقاب .

ان وجود عمر فى البيت ، فى هذه الساعة ، نائبة من النوائب .

وبقى عمر .

ـ ألا تستحى يا بنت ؟

وحاولت « عينى » أن تمسك به من ذراعه . ولكن جهودها ذهبت سدى . فقد تملص منها . وفجأة رمته بسكين المطبخ التى كانت تستعملها فى تقشير عكوبها . فأعول الصبى . وسل السكين من قدمه دون أن يتوقف ، وهرع يخرج من الغرفة ، والسكين فى يده ، ولعنات « عينى » تلاحقه .

www.liilas.com

- ٣ -

ان هاتين العينين الواسعتين ، عينى الصبى المقمط بقميص الكاكى تعبران عن تساؤل نهم ، كأنه تساؤل حيوان خائف . وكان عمر يقرأ فى هاتين العينين الانتظار ، والامل الراعش ، والقلق . الا ان بسمة قد أضاءت وجهه شيئا بعد شىء . وظهر تحت جناحى أنفه اخدودان قاسيان مددا وجهه .

جاء عمر نحوه قدما . ووضع شيئا فى كفه الضيقة الصغيرة . فأغرق الصبى نظراته فى نظرات عمر ، دون أن يقول شيئا .

ـ أغمض عينيك ، وافتح فمك .

بهذا أمره عمر ، فأغمض الصبى عينيه ، وفتح فمه . فأسرع عمر يخرج من قاع جيبه ملبسة ويضعها على لسانه . ثم اختفى .

لم يكن يجرؤ عمر ولا أحد غير عمر أن يتعرض لتلك الفئة القليلة من أبناء التجار والملاك والموظفين الذين يرتادون المدرسة ، دون أن تناله يد المعلمين بعقاب شديد . أن من الخطر أن يهاجمهم أحد : فان لهم بين التلاميذ والمعلمين حاشية تتملقهم .

كان أحدهم ، واسمه ادريس بلخوجا ، وهو صبى غبى متكبر ، لا يعرض أثناء كل فترة من فترات الاستراحة بين الحصص ، خبزا فمسب ، وذلك وحده شىء كثير ، بل كان يعرض كذلك فطائر ومربات . كان يستند بظهره الى جدار ، ومن حوله بطانته ، ويأخذ يلتهم طعامه فى رصانة ووقار . ومن حين الى حين ، يميل أحد الصبية على الارض ، ليلتقط ما يسقط من بين يديه من فتات .

ما رأى أحد ادريس يعطى شيئا فى يوم من الايام : فكان عمر لا يفهم لماذا يتجمعون حوله اذن هذا التجمع ! ترى أهو احترام غامض يوحى اليهم به مخلوق يستطيع أن يأكل كل يوم متى جاع ؟ أكان هؤلاء

www.libanais.com

الصبية مفتـونين بالقوة المقدسـة المتجسدة فى هذا الطفل الرخو الغبى ؟

كان لادريس رفيق يحمل عنه حقيبته الجلدية المطرزة بالفضـة والذهب ، عند الخروج من المدرسة فى الساعة الرابعة . وكان هناك آخرون يذهبون اليه فى الصـباح عند اقتراب موعـد المجىء الى المدرسة ، ليرافقوه فى الطريق ، ثم لا ينفصلون عنه الا حين يدق الجرس . وكانوا يتنافسون على الاقتراب منه ، وطوبى لمن يتاح له أن يضع يده على كتفه !

وكان من عادته أن يشترى قضامة وبذرا وفلافل ، حتى لقد كان يملك نقودا أيضا . كان يشترى من البائعين الصفار الذين يتلبثون فى شارع التلاميذ المظلم ، قبيل الساعة الواحدة ، خمسة قراطيس من القضامة أو ستة ، فيوزع على كل واحد من رفاقه حبة واحدة . فاذا تشكى هؤلاء الرفاق أو سخروا ، أخذ يهر بصوت أقوى من صوتهم قائلا :

ـ وأنا ، ماذا يبقى لى اذن ؟ .. أتريدون أن أعطيكم كل شىء ؟

وكان فى كل صباح بلا استثناء يذكر لرفاقه ، بعد أن يشبع ، ما أكله فى الليلة البارحة، ثم يذكر لهم فى فترة الاستراحة بين الحصص بعد الظهر ، ما تناوله من طعام فى وجبة الغداء : لم يكن يخـرج موضوع كلامه عن فخذ خروف مشوى بالفرن ، وفراخ ، وكسكسى بالزبدة وبالسكر ، وعن حلوى باللوز والعسل مما لم يسمع أحـد منهم بأسمائها من قبل . هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحا ؟ .. لعل الغبى لم يكن يبالغ .

كان الاطفال يقفون زائغى الابصار مبهـوتين وهم يستمعون الى حديثه المليء بذكر هذه الاطعمة . وكان هو لا ينى يكرر تلك القائمة الطويلة من أسماء الاطباق التى تذوقها ، مما يصعب تصديقه .

ان الأعين كلها تشخص اليه ، وتتفحصه تفحصا غريبا . ويسأله أحدهم لاهثا :

ـ أكلت وحدك قطعة كبيرة من اللحم هكذا ؟ ..

ـ أكلت وحدى قطعة كبيرة من اللحم هكذا ..

www.liberalarab.com

— وخوخا مجففا ؟ ..
— وخوخا مجففا ..
— وعجة بالبطاطس ؟ ..
— وعجة بالبطاطس ..
— وبازاليا باللحم ؟ ..
— وبازاليا باللحم ..
— وموزا ؟ ..
— وموزا ..
ويسكت السائل .

***

كان عمر يطوف فى ساحة المدرسة باحثا . أين صاحب القميص الكاكى ؟ .. والتقى بعدد من رفاقه ، فكان يصدمهم صدما عنيفا ، وكانوا يتعلقون به عند مروره ، وينادونه . ولكنه لم يعثر على أثر من آثار الصبى .

وحلف فجأة انه لن يراه بعد اليوم أبدا . كان فى العادة يلمحه مستندا الى ذلك العمود نفسه فى رواق المدرسة . وكان صاحب القميص الكاكى يبدو مبعدا ، فهو يظل طوال الوقت متنحيا عن الصبية الآخرين .

ان الجرس الذى يعلن نهاية فترة الاستراحة يوشك أن يدق . الهياج فى ساحة المدرسة بلغ ذروته . اللعب ازداد عنفا . صيحات الصراخ تثقب الجو . هذه هى العلامات التى تسبق الدقائق الاخيرة من فترة الاستراحة : ان عمر يعرف ذلك بغريزة التلميذ .

أحسن من هذا بفاجعة . وكان لا يزال يبحث عن صاحب القميص الكاكى .

وأحس فجأة انه لا يرتبط بالحياة الا بروابط غامضة . غدا كل شىء من حوله غريبا . ان صاحب القميص الكاكى لا وجود له فى أى مكان . ما عساه يصبح بدون صاحب القميص الكاكى ؟

ودوى صوت الجرس . واصطف عمر مع رفاقه .

انه يتخيل صاحب القميص الكاكى عند أهله دون ريب ينتظره ..

www.libalarab.com

ويتخيله جالسا الى « المائدة (١) » ، ويتخيله لاعبـا فى فناء بيت كبير .

ضرب المعلم الهواء بعصاه الرقيقة المتخذة من غصن زيتون . ودخل التلاميذ الى الفصل مصطفين اثنين اثنين .

وجه عمر نظراته الى أمام وارتعش فمه . ومع استمرار قلقـه وخوفه تخيل أن صاحب القميص الكاكى قد مات .

ولكن فى اللحظة التى كان يغلق فيها باب الفصل ، لمح عمر قامة الصبى النحيل تجتاز ساحة المدرسة مهرولة .

(١) يطلق اسم المائدة فى اللغة الدارجة بالجزائر على منضدة مدورة واطئة يجلس اليها أفراد الاسرة للطعام .

www.liilarab.com

— ٤ —

ما ان جلس التلاميذ على مقاعدهم حتى أعلن المعلم بصوت كأنه صوت البوق ان الدرس درس أخلاق .

— أخلاق .

الدرس درس أخلاق . اذن فى وسع عمر أن ينتهز هذه الفرصة ليمضغ الخبز الذى كان فى جيبه ولم يستطع أن يعطيه للمقمط بالقميص الكاكى .

سار المعلم بضع خطوات بين مناضد التلاميذ . فتبددت الضوضاء الصماء ، ضوضاء ضرب الارض بالنعال وخبط المقاعد بالأرجل ، والنداءات والضحكات والهمسات. وخيم الهدوء المؤقت على القاعة كأنما بسحر ، فاذا التلاميذ يحبسون أنفاسهم ، وينقلبون الى أولياء صالحين . ولكن رغم سكوتهم ورغم اجتهادهم ، كان يتموج فى الجو فرح خفيف مجنح متراقص كالضياء .

سر الاستاذ حسن ، فسار الى منبره ، وأخذ يقلب أوراق دفتر كبير ثم قال :

— الوطن ..

لم يكترث الصبية بالنبأ . انهم لا يفهمون . وعسكرت الكلمة فى الهواء تهتز .

— من منكم يعلم معنى كلمة : الوطن ..

فقامت حركات عكرت هدوء الفصل . فضرب المعلم احدى المناضد بعصاه ، فأعاد الى القاعة النظام . بحث التلاميذ فيما حولهم ، وطافت نظراتهم بين المناضد ، وعلى الجدران ، ومن خلال النوافذ ، وفى السقف ، وفى وجه المعلم . ظهر واضحا أن الوطن ليس فى أى مكان من هذه الأمكنة التى طافت بينها نظراتهم . ان الوطن ليس فى الفصل . ونظر التلاميذ بعضهم الى بعض . ان منهم من كان يضع

www.libarab.com